المقتطف

الجزء الثامن من المجلد السابع والعشرين

١ اغسطس (آب) سنة ١٩٠٢ — الموافق ٢٦ ربيع الثاني سنة ١٣٢٠

الدكتور بلس

رئيس المدرسة الكلية السورية الاول

للامم كما للافراد ادوار يستيقظون فيها بعد السبات وينهضون للعمل بعد الخمول . ولقد كان زمن هذه النهضة في بلاد الشام منذ اربعين عاماً بعد الحادث الكارث الذي سُفكت فيهِ دماء الابرياء وخربت المنازل وشتّت الشمل

"وللشر إقلاع وللهم فرجة وللخير بعد المؤنسات عوائدُ"

وكانت فاتحة النهضة انشاء المدارس الكبيرة فامَّها الطلبة من كل فج رغبةً في اكتساب العلم والتذرُّع بهِ الى العمل . انشأ المرحوم المعلم بطرس البستاني المدرسة الوطنية في بيروت وانشأت طائفة الروم الارثوذكس مدرستها الكبرى في سوق الغرب والطائفة الدرزية المدرسة الداودية في عبيه عدا المدارس الكثيرة التي انشأها قبيل ذلك المرسلون الفرنسويون في جهات مختلفة من جبل لبنان وعدا مدرستي البنات في بيروت مدرسة مسز طمسن الانكليزية والمدرسة الاميركية اللتين أُنشئتا ليجد شبان النهضة الجديدة زوجات متعلمات يجاريهم في ميدانها فلا تكون عقيمة من حيث عمران البيوت وتربية الجيل التالي

وكان دماء الابرياء التي اريقت في لبنان ودمشق ووادي النيم في الحادث الذي اشرنا اليهِ آنفاً. والاموال التي جاد بها المحسنون من اهالي اوربا واميركا لتنفق على الذين نكبوا في تلك النكبة. والغيرة التي غارتها دول اوربا على توطيد الامن في ربوع الشام. والهمة التي بذلها ولاة الامور لانجاح البلاد واسعاد العباد من عهد فؤاد باشا وداود باشا — كلّ ذلك ولّد في النفوس رغبةً شديدة في طلب العلم واقنع رؤّاد المعارف ان سعيهم لا يذهب سدًى فحلّت على البلاد

روح جديدة روح التعلم والتعليم وصار الرجال يتركون اعمالهم وحرفهم بعد ان زاولوها سنوات ويدخلون المدارس يطلبون العلم مع صغار الطلبة. وصارت مطارحات الناس ومذاكراتهم في حل المسائل اللغوية والرياضية ومجتمعاتهم لاستماع الخطب العلمية والادبية

ولم يكد الطلبة يحرزون مبادئ العلوم حتى اتجهت همة القس الفاضل الدكتور بلس احد المرسلين الاميركيين في جبل لبنان الى انشاء مدرسة كلية تعلم العلوم العليا وتعد الطلبة لتعلم العلوم الفنية كالطب والصيدلة والهندسة والشريعة وتكون مثل المدارس الكلية في اوربا واميركا فخاطب اخوانهُ المرسلين في هذا الشأن ولا بدَّ من ان يكون قد وجد بينهم المرغِّب والمزهِّد لاختلاف عقول الناس ومذاهبهم والظاهر انهم اتفقوا اخيرًا على استحسان العمل وانتدبوهُ لجمع المال لهُ من اوربا واميركا لان عملاً مثل هذا يقتضي مالاً طائلاً لا يمكن جمعهُ من بلاد شرقية

كان الدكتور بلس حينئذٍ كهلاً في الاربعين من عمرهِ فانهُ ولد في السابع عشر من اغسطس سنة ١٨٢٣ ولم يتسنَّ لهُ طلب العلم فتى فطلبهُ شابًّا ونال الشهادة البكلوريا من مدرسة امهرست الجامعة وعمرهُ ٢٩ سنة ثم درس علم اللاهوت واجيز لهُ فيهِ وعمرهُ اثنتان وثلاثون سنة . وكأنهُ لما رأى الشبان السوريين بعدئذٍ يتركون اعمالهم وينقطعون لطلب العلم مثلهُ ودَّ ان يرتووا منهُ كما ارتوى هو

واقترن تلك السنة بزوجتهِ الفاضلة التي يحسبها تلامذة المدرسة الكلية امًّا لهم كما يحسبون زوجها ابًا وهي اكبر عضد لهُ في اشغالهِ والروح التي توحي اليهِ من وراء الستار

وقصد بيروت سنة ١٨٥٥ في سفينة شراعية فوصلها في العام التالي واقام في عيبه وسوق الغرب يتعلم العربية ويعلم ويبشر الى ان خطر لهُ انشاء المدرسة الكليَّة على ما تقدَّم فعاد الى اميركا يحثُّ الاغنياء والفضلاء على الجود بالمال لهذا العمل المبرور . وقدَّر لهُ الله ان سمع خطبهُ الاولى رجل كريم من اهل اليسار فاستوضح غرضهُ بالتفصيل وكان من اول المكتتبين بالمبالغ الطائلة ومن اكبر القائمين بانشاء هذه المدرسة وممَّن لهم اليد الطولى في حث اخوانهم الاغنياء على المشاركة في هذا العمل

والنوادر التي سمعناها منهُ عن مقابلة الناس لهُ وهو يعرض عليهم الغرض الذي يتوخاهُ ويحثهم على الاخذ يدهِ تدلُّ على انهُ اعرف الناس باخلاق الناس وكثيرًا ما كان يقصد رجلاً مشهورًا بالبخل فينال منهُ اكثر مما ينال من رجل مشهور بالكرم. وبعد عناء كثير لا يعلمهُ الاَّ الذين سألوا الناس ولو لاشرف الغايات وانبلها جمعَ المال الكافي وتألف مجلس في اميركا

ائتُمن عليهِ وصدرت الرخصة الرسميَّة من حكومة نيويورك بانشاء المدرسة الكلية في بيروت فعاد الى سورية ونشر لائحة العلوم التي يراد تعليمها في هذه المدرسة فحالما اطلع عليها كاتب هذه السطور وكان من طلبة العلم في مدرسة عبيه والدكتور بلس مصطاف فيها تاق الى مقابلتهِ فقابلهُ بالبشاشة والهشاشة ووعدهُ خيرًا. ولما فتحت ابواب المدرسة في اوائل اكتوبر ضاف التلامذة الاوَّلين في يومهِ الى ان اعدت معدات المنامة فيها. وكنَّا ستة عشر طالبًا لا غير اكثرنا شبان تعلَّموا وعلموا قبل افتتاح المدرسة فقام على تعليمنا هو والشيخ ناصيف اليازجي والمعلم اسعد الشدودي والمستر فريزر الاسكتلندي والمسيو شارليه بازيه الفرنسوي. وكنَّا نأكل في المدرسة الوطنيَّة ونتعلم وننام في دار صغيرة مأجورة. وفي العام التالي انشئ الفرع الطبي وجاء الدكتور ڤان ديك والدكتور ورتبات والدكتور بوست للتعليم فيهِ وفي القسم العلمي ايضًا. ولما وقفنا لامتلام الدبلوما في آخر السنة الرابعة كنَّا خمسة لا غير كاتب هذه السطور واربعة من اخوانهِ والباقون توفوا او انتقلوا الى القسم الطبي او تركوا الدرس لاسباب أُخرى

وقد مرَّ على المدرسة الكلية الآن ٣٣ سنة فانتقلت من تلك الدار الصغيرة المأجورة الى مبانٍ رحبة فخيمة خاصة بها تكاد تكون بلدًا في رأس بيروت وزاد عدد الطلبة من ستة عشر الى اكثر من ستمئة. وللدكتور بلس اليد الطولى في هذا النمو والاتساع فبسعيهِ جُمع اكثر المال الذي بنيت بهِ مباني المدرسة المختلفة والمال الذي يُنفق ريعهُ على اساتذتها. وباهتمامهِ بنيت تلك المباني ولم ينفق عليها الاَّ اقل ممَّا ينفق على مثلها في مدينة بيروت. هذا من حيث جسم المدرسة امَّا روحها اي تعليم التلامذة وتثقيف عقولهم وتهذيب اخلاقهم وتكبير نفوسهم وجعلهم رجالاً يعتمدون على جدهم وتعتمد بلادهم عليهم فهو الشيء الاهم ولهُ فيهِ ايضًا اليد الطولى

اما من حيث التعليم بالذات فرؤساء المدارس لا يعلِّمون الاَّ قليلاً لان اكثر عملهم اداري وقد كان الدكتور بلس يدرِّس بعض العلوم الرياضية في اول الامر ثم جعل يدرِّس الفلسفة العقلية والادبية واخيرًا اقتصر على تدريس الفلسفة الادبية. وطريقتهُ في التدريس بسيطة وهي توضيح الموضوع بالامثلة الحسية المنتزعة من اعمال الناس وترك التلامذة يستنتجون كليات العلم لانفسهم. ويلي ذلك او يقدَّم عليهِ الاهتمام بانتقاء المدرسين واطلاق الحرية لهم فاذا رأى مدرِّسًا قائمًا بما يجب عليهِ اطلق لهُ الحرية التامَّة ولم يعترضهُ في شيء لا في التدريس ولا في ما يراهُ لازمًا من ادارة التلامذة فكأن كل مدرِّس مستقلٌّ بنفسهِ في ما خُصَّ بهِ تدريسهُ. واما اذا وجدهُ غير كفء للتدريس فلا اسهل من ابداله بغيرهِ ولذلك فاكثر الذين درَّسوا في المدرسة الكلية بذلوا جهدهم في انجاح تلامذتهم غير مقيَّدين بالقوانين المدرسية التي تقلُّ

يدي المدرّس في الغالب وتجعلهُ يهتم بالعرض لا بالجوهر . فالمدرّس الذي لهُ اسلوب حسن للتدريس يفلح في عملهِ والذي ليس لهُ اسلوب حسن لا يفلح ولو حوّطتهُ بالف قاعدة وقانون

ومع اطلاقهِ الحرية للمدرسين وتركهم من غير سيطرة لم يكن يغفل عمَّا يبدو من التلامذة من امارات الذكاء والخمول والاجتهاد والكسل فينقّي المدرسة من الخاملين الكسالى باسقاطهم او بمنع المساعدة المدرسيَّة عنهم حتى يتركوها من انفسهم واما الذكي المجتهد فيزيد رغبتهُ واجتهادهُ بكلمة يقولها لهُ في محلها ولا يطريهِ ولا يكرر المدح عالمًا ان الشيء اذا قلَّ عزَّ . اختار احد تلامذتهِ لتدريس الفلسفة الطبيعيَّة واتفق بعد سنة من الزمان ان سأَلهُ ذلك المدرّس قائلاً ما جعلك تختارني لهذا المنصب فقال لهُ رأيتك وانت تليذ تصنع آلةً تمثل مطحنة باركر فعلمت انك تميل الى العلوم الطبيعية الامتحانية ومن كان لهُ ميل طبيعي الى علم من العلوم افلح فيهِ متى تيسَّرت لهُ وسائلهُ فحفظت المثال الذي صنعتهُ وبقي اسمك وفعلك في ذهني حتى اذا احتاجت المدرسة الى من يدرّس فيها الطبيعيات اخترتك لهذا المنصب

نأتي الآن الى تهذيب الاخلاق وهو عندنا اهم من تثقيف العقول وسبيلهُ اليهِ الوعظ والارشاد في ايَّام الآحاد وتدريس الآداب الدينية لكل التلامذة ولو مرةً في الاسبوع والسهر المستمر على سيرتهم داخل المدرسة وخارجها . وطريقتهُ في ذلك كلهِ مثل طريقتهِ في التعليم والادارة اي الارشاد والمراقبة من غير اكراهٍ ولا تشديد حتى يشعر التليذ انهُ مقود الى الخير من نفسهِ لا بزمامٍ ولا بشكيمة . فاذا وعظ ذكر الحقائق واوضحها بالامثال ولم يكثر من التوبيخ والتقريع واذا علَّم القواعد الدينيَّة لم يستخف باعتراضات التلامذة ولا زجرهم اذا ابدوا ما في نفوسهم من الشكوك بل عاملهم في ذلك كأنهُ واحد منهم وكأنهُ هو واياهم من طلَبة الحق على حدٍّ سوى ولذلك لا نظن ان احدًا من تلامذتهِ يقدر ان يقول عنهُ انهُ ضغط على افكارهِ يومًا من الايام

وكثيرًا ما كان يخرج في الليالي ويطوف في ازقَّة المدينة فاذا رأى تليذًا خارج المدرسة في غير الوقت الذي يسمح لهُ فيهِ بالخروج نظر اليهِ نظرةً يشعر التليذ منها بخطإهِ وبأن عين رئيسهِ غير غافلة عنهُ فيعود بالخجل من نفسهِ والندم على ما فعل الاَّ اذا كان معوجًّا لا يرجى تقويمهُ . وهذا كان شأنهُ دائمًا كلما رأى تليذًا اخلَّ بما يجب عليهِ فانهُ كان يريهِ خطأهُ من طرفٍ خفي حتى يستحي منهُ ويرجع عنهُ من نفسهِ

استدعى احد التلامذة المنتهين مرةً وقال لهُ شكاك الناظر اليَّ انك لم تطعهُ فاستغربتُ

ذلك منك لانني لم اسمع عليك شكوى قبل الآن . فقال التلميذ يقول المثل العربي ان شئت ان تُطاع فسَلْ مايستطاع ومن ثم تعلم لماذا لم اطع الناظر . فتبسَّم وقال لهُ كفى . ولم يتم الناظر السنة . واضطرت فرقة (صف) منتهية ان تخرج من المدرسة لامر ما وابى البوَّاب ان يفتح لها الباب ولم يكن الرئيس في المدرسة لتستأذنهُ ولم يسمع البواب لاحتجاجها فاخذت المفتاح منهُ غصبًا وفتحت الباب وخرجت . ورُفع الامر الى الرئيس فقال ان البواب محقٌّ لانهُ غير مأذون في فتح الباب لاحد في ذلك الوقت والفرقة محقة في خروجها لانني ابنت لها من اول السنة اني اعتمد على حريتها وشرفها ولكنها اخطأت في اخذ المفتاح من البواب ويجب ان تعتذر اليهِ عن ذلك . فاعتذرت وانتهى المشكل

ـ اما تكبير النفوس وهو الامر الاهم حتمًا ولاسيما في بلاد المشرق حيث صغرت النفوس بما مرَّ عليها من ازمنة الاستبداد فلا نظنُّ ان احدًا يفوقهُ فيهِ او يضارعهُ . دخل غرفة الدرس العمومي مرة وكان التلامذة كلهم مجتمعين فيها وقال لهم ارسل الوزير الفلاني يقول انهُ آتٍ الآن لزيارة المدرسة ولو جاء رئيس اميركا او ملكة انكلترا لقلت لكم لا تقفوا بل ابقوا مكبين على دروسكم كما انتم الآن ولكن لا بدَّ من مراعاة احوال الزمان والمكان فاذا لم تقفوا لهذا الوزير عدَّ ذلك اهانة مقصودة فارجو ان تنهضوا حال دخولهِ وانا ادخل معهُ واشير اليكم لتجلسوا فاجلسوا . فشعر كل واحد منا كأن ما على عاتقهِ من احمال الاستبداد حُلَّت عراهُ فزال الضغط عن نفسهِ وحاولت الاتساع والانتشار . وحدث بعد ذلك بسنوات كثيرة ان اتى امبراطور برازيل الى بيروت وزار المدرسة الكلية ودخل غرف التدريس التي كنَّا ندرّس فيها فوقف لهُ التلامذة اجلالاً من تلقاء انفسهم فاشار اليهم بكلتا يديهِ ليجلسوا ثم قال ان العلم اشرف من كل شريف فلا تكرموا احدًا عليهِ . وكأنهُ اعاد على مسامعنا كلام الرئيس الذي سمعناهُ في صبانا . ما اعظم الفرق بين نفوس تلامذة يسمعون هذا الكلام ونفوس تلامذة تديرهم ايدي المدرسين كانهم جماد لا ارادة فيهِ ولا حياة

وكل ما سمعناهُ من كلام الدكتور بلس مع تلامذتهِ وما رأيناهُ من معاملتهِ لهم الاَّ في حادثة واحدة[1] يدلُّ على انهُ يتوخَّى الامر الذي اشرنا اليهِ آنفًا وهو تكبير نفوس التلامذة وجعلهم يشعرون انهم رجال يجب عليهم ان يعتمدوا على انفسهم

ومن اقوم السبل التي طرقها لهذه الغاية وساعدتهُ فيها زوجتهُ الفاضلة دعوتهُ التلامذة الى

(١) والحادثة التي اشرنا اليها ثورة التلامذة التي ترتبت على استعفاء بعض الاساتذة . والمسألة لم تجلَ غوامضها الا بعد حدوثها وبعد ان سبق السيف العذل

يبته من وقت الى آخر لكي يقابلوا كبار السيَّاح وكرام الزوَّار فيعرِّفهم بعضهم ببعض ويقدم لهم ما يقدَّم في مثل هذه الاجتماعات من الشاي والقهوة كأنهم والزوَّار واهل البيت في منزلة واحدة فيجلس التلميذ مع امير البحر او مع القنصل الجنرال على مقعد واحد ويتناولان الشاي عن طبق واحد ويتحادثان ويتسامران كانهما صديقان متماثلان ويمرُّ الرئيس فيكلم التلميذ كما يكلم غيرهُ من زوَّارهِ ويمر زوجتهُ فتحذو حذوهُ . هذه الدعوات غير كثيرة ولكنها اذا حدثت مرةً في السنة تكفي لتبثَّ في نفس التلميذ روح الترفُّع والاستقلال وتضرم في قلبهِ الحب لرئيسهِ والرغبة في ارضائهِ

واهتمامهُ بالتلامذة وهم في المدرسة لا ينقطع بعد خروجهم منها فيكاتبهم ويكاتبونهُ . وهم يقلُّون من مكاتبتهِ طبعاً لعلمهم بكثرة اشغالهِ ولكننا لا نظن ان احداً كتب اليهِ فلم يجبهُ حالاً . ولا يخلو كتاب لهُ من نكتة او ملحة فلا يشعر التلميذ انهُ من رئيس الى مرؤوس . وقد منحهُ الله ذاكرة قوية فيتذكَّر كل تلامذتهِ ولو لم يقيموا في المدرسة الاَّ وقتاً قصيراً وقد يتذكر اسماءهم ايضاً واذا قابلهم بعد غربة طويلة عانقهم كما يعانق الاب ابنهُ على خلاف عادة الغربيين

وقد استعفى الآن من رئاسة المدرسة الكلية فاختير ابنهُ الدكتور هورد بلس رئيساً لها بدلاً منهُ كما ذكرنا قبلاً ورأى تلامذتهُ وغيرهم من وجهاء السوريين ان يقدموا لهُ تذكاراً علامةً شكر لهُ . واول من جمع كلمتهم على هذا الامر الاستاذ الفاضل الدكتور ورتبات فجمع تلامذتهُ وغيرهم من الوجهاء في سورية مبلغاً من المال صنعوا منهُ وساماً كبيراً من الذهب قلدوهُ بهِ في احتفال حافل في التاسع عشر من شهر يونيو الماضي وقد كتبوا على احد وجهيهِ بالعربية ما يأتي "الى الدكتور دانيال بلس زعيم مؤسسي المدرسة الكلية السورية الانجيلية في بيروت واول رئيس تولى رئاستها من سنة ١٨٦٦ الى ١٩٠٢ . انشأهُ فريق من متخرجي المدرسة وسواهم تذكاراً لجميلهِ وفضلهِ عند تقاعدهِ عن الرئاسة في ١٩ حزيران سنة ١٩٠٢" ونقش على الوجه الآخر فحوى ذلك بالانكليزية وفي اعلاهُ صورة ارزة من ارز لبنان وهي شعار المدرسة وصنعوا آنية من الفضة قدموها الى زوجتهِ واعطوهُ ما بقي نقوداً وخطبوا الخطب الحسان عددوا فيها فواضلهُ . وطُلب من تلامذتهِ المقيمين في القطر المصري ان يشاركوا اخوانهم السوريين فاجتمعوا في ادارة المقتطف وقرروا عمل تمثال لهُ ينصب في دائرة المدرسة ويكتب عليهِ "تذكار للدكتور دانيال بلس رئيس المدرسة الكلية السورية الانجيلية الاول من تلامذتهِ" وجمعوا المال اللازم لذلك . وما اهتمام تلامذتهِ بتقديم علامة الشكر لهُ الاَّ ثمرة من ثمار الاخلاق النبيلة التي اهتم بانمائها في نفوسهم

وهو طويل القامة نحيف الجسم شديد العضل برّاق العينين غزير شعر الراس بلغ الثمانين ولا يزال يمشي منتصبًا ويركب فرسهُ ساعات متوالية كالشبان. فسبح الله لهُ في الاجل واراهُ من ثمار اعمالهِ ما يملأُ قلبهُ سرورًا

وما غرضنا من نشر ما نشرناهُ عنهُ الاَّ ان يكون مرشدًا لرؤساء المدارس حتى يقتدوا بهِ ويحذوا حذوهُ في تثقيف عقول التلامذة وتهذيب اخلاقهم وتكبير نفوسهم فينشأُوا رجالاً يُعتمَد عليهم وتنتفع بهم بلادهم . اما النهضة العلمية الادبية التي اشرنا اليها في صدر هذه المقالة فاستمرَّت عشرين سنة ثم خبت نارها بما ذُرَّ عليها من رماد المراقبة والتضييق وصار الشبان يهجرون البلاد حالما يتمون دروسهم الاَّ نفرًا قليلاً منهم ولله الامر

الله والعلم

اسرُّ الى المقتطف هذه الكلمة الفانية على هذه الدنيا الفانية واسألهُ ان يذيعها تمجيدًا لله وتنويهًا بالعلم الذي هو آية ملكهِ ورسولهُ الذي لا يموت في العالمين

ولئن وعظ الاسكندر الناس ساعة مماتهِ اضعاف وعظهم في حياتهِ ففي مرض الملك ادورد وهو يضطلع بالدولة التي يخسر الطرف في مواكبها ما فيهِ للنفوس مزدجر وما جمع الله فيهِ العبر

لِمن ذلك المُلك الذي عزَّ جانبهُ ... لقد وعظ الاملاكَ والناسَ صاحبهُ
أَمُلكُ أيا ادوَرْدُ والملك للذي ... يغار عليهِ والذي هو واهبهُ
اراد بهِ امرًا فجلَّت صدورهُ ... فأتبعهُ لطفًا فجلَّت عواقبهُ
رمى واستردَّ السهمَ والخلقُ غافلٌ ... فهل يتَّقيهِ خلقهُ او يراقبهُ
أيبطلُ عيد الدهر من أجل دُمَّلٍ ... وتخبو مجاليهِ وتُطوَى مواكبهُ
ويرجعُ بالقلب الكسير وفودهُ ... وفيهم مصابيح الورى وكواكبهُ
وتسمو يدُ الدهر ارتجالاً بيأسها ... الى طنب (الاقواس) والنصر ضاربهُ
ويستغفر الشعب الفخورُ لربهِ ... ويجمع من ذيل الخيلةِ ساحبهُ
ويحجب ربهُ العيد ساعةَ عيدهِ ... وتنقص من اطرافهنَّ مآدبهُ
ألا هكذا الدنيا وذلك ودّها ... نهلاً تأتّى في الاماني خاطبهُ
اعدَّ لها ادوردُ اعيادَ تاجهِ ... وما في حساب الله ما هو حاسبهُ
مشت في الثرى انباؤُها فتساءلت ... مشارقهُ عن امرها ومغاربهُ